طائفة الختمية
وصلتها بالشيعة

د. أحمد محمد أحمد جلي

الطبعة الأولى
١٤١٩هـ - ١٩٩٩م

وقف لله تعالى

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمـــة

يهدف هذا البحث إلىٰ استكشافِ الصلة بين إحدىٰ الطُّرق الصوفية، وهي الطريقة الختمية ـ أو الميرغنية ـ وبين الشيعة.

وقبل أن نعالج هذه القضيّة يجدر بنا التعريف بهذه الطريقة في إجمال، وعرض تاريخها ومعتقداتها في اختصار.

الأصول التاريخية لطائفة الختمية

تعود طائفة الختمية في أصولها القريبة إلى السيد محمد عثمان الميرغني (الختم) (١٢٠٨ ـ ١٢٦٨هـ/ ١٧٩٣ ـ ١٨٥٣م) الذي ينحدر من أسرة من الأشراف يُقال: إنَّها هاجرت في أَزمان سابقة من الحجاز إلى تركستان، ثم إلى الهند، وعادت أَخيراً، حيث استقر بها المقام في الحجاز. وكان جده عبدالله الميرغني المحجوب ت(١٢٠٧هـ ـ أو ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٢أو١٧٩٣م) أَحد مشاهيرالصوفية الذين ترجم لهم الجبرتي في كتابه: [عجائب الآثار]، وأشاد بمناقبه وعلمه وزهده، ونسب إليه بعض الكرامات[١].

---

(١) [عجائب الآثار في التراجم والأخبار]، عبد الرحمن الجبرتي، تحقيق وشرح حسن محمد جوهر وآخرين، ط أولى، لجنة البيان العربي ١٩٦٥م. انظر: جـ٤ ص (٢٢٤ ـ ٢٢٦).

وُلِدَ السيد محمد عثمان الميرغني في الطائف عام ١٢٠٨هـ، ونشأ وتعلَّم في مكة، ودرسَ على مشايخها علوم العربية والشريعة الإسلامية، وله عدة مؤلفات في هذه العلوم، ولكن غلب عليه الاهتمام بالتصوف، فدرسَ علوم الصوفية، وسلكَ طريقهم، وتنقل بين طرقهم، فبدأ بالنقشبندية، ثم القادرية، ثم الطريقة الجنيدية، كما تلقّى طريقة جدِّه عبدالله المحجوب: الطريقة الميرغنية، وتلقّن على يد الشيخ أحمد بن إدريس (١١٧٣ ـ ١٢٥٣هـ/ ١٧٦٠ـ١٨٣٧م)، أصول الشاذلية[1]، وبعثَ به شيخه أحمد بن إدريس إلى السودان لنشر الطريقة الإدريسية الشاذلية، وتنقل بين أجزاء السودان، حيث صادف نجاحاً جزئياً في دعوته في الشمال، ثم توجه إلى غرب السودان (شمال كردفان)، ووجد استجابة محدودة لدعوته في منطقة (بارا)، وتزوج من هذه المدينة، وولد له فيها السيد الحسن، الذي

(١) [تاج التفاسير]، محمد عثمان الميرغني، دار المعرفة/ بيروت، ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م. ص(٢ـ٤).

أسهم في نشرِ الطريقة في السودان فيما بعد.

ومن (بارا) توجّه السيد محمد عثمان إلى (سنار) عاصمة دولة الفونج[١] آنذاك، ومنها رجعَ إلى الحجاز عن طريق البحر الأحمر[٢].

ورغم أن السيد محمد عثمان لم يصادف نجاحاً كبيراً في دعوتــه فــي الســودان، باستثناء منطقة شمال السودان وغربه، فيمكن القول بأنه استطاع أن يجعل له رابطة في السودان عن طريق الزواج، وأن يضع البذرة والنواة لطائفة الختمية في تلك البلاد.

وفي الحجاز استمر السيد محمد عثمان في خدمة شيخه السيد/ أحمد بن إدريس، وصحبه إلى منفاه في

---

(١) أول سلطنة إسلامية في السودان أسسها عمارة دنقس، في أوائل القرن العاشــر الهجــري، السادس عشر الميلادي (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م)، واستمرت حتى بداية القرن التاسع عشر الميلادي.

(٢) [تــاريــخ الســودان وجغــرافيتــه]، نعــوم شقيــر، ص (٤١١، ٤١٢).

(صبيا)، ولازمه حتى وفاته عام (١٢٥٣هـ/ ١٨٣٧م)[١].

وبعد وفاة السيد/ أحمد بن إدريس، تنافس على وراثة الطريقة: السيد محمد عثمان، ومحمد بن علي السنوسي، وكان النصر حليف السيد محمد عثمان الذي فاز بتأييد أشراف مكة ضد السنوسي، وأسس من ثم زوايا في مكة المكرمة والمدينة المنورة والطائف وجدة، ولكن ليس لطريقة شيخه، بل للطريقة الجديدة التي استخلصها من الطرق التي اعتنقها من قبل، واعتبرها خاتمة الطرق جميعها، وعرفت بالطريقة الختمية[٢].

ولم يلبث السيد محمد عثمان أن بعث بوفوده للأقطار المختلفة؛ للدعوة لطريقته الجديدة (الختمية)، فأرسل أكبر أبنائه(محمد سر الختم) إلى اليمن

---

(١) المصدر السابق.

(٢) [النفحات المكية واللمحات الحقيقية في شرح أساس الطريقة الميرغنية]، (محمد عثمان الميرغني) ضمن مجموعة النفحات الربانية.
انظر ما يلي، هامش(١) ص(١٧).

وحضرموت، وابنه السيد الحسن إلى شرق السودان، حيث اكتسب ثقة القبائل التي كان والده قد زارها من قبل، ولقيت الدعوة في هذه الأماكن نجاحاً كبيراً، وواصل السيد الحسن سيره إلى (سنار) ثم إلى (كردفان) موطن خؤولته، ثم طاف شمال السودان، حيث لقيت الدعوة النجاح الذي لقيته في الشرق.

وقد جلبَ هذا النجاح الملحوظ الذي لقيته دعوة الختمية عداء بعض علماء مكة ضد السيد محمد عثمان الختم، الأمر الذي دفعه للانتقال إلى الطائف حيث اعتزل الناس، وبقي بتلك المدينة حتى وفاته عام (١٢٦٨هـ/١٨٥٣م)، بعد أن أسس طريقته، ووضع قواعدها في جنوب وغرب الجزيرة العربية، وشمال السودان وشرقه، وجنوب مصر(١).

وتولى رئاسة الطريقة بعده ابنه الأكبر (محمد سر الختم)، ولكن موته السريع والمفاجئ فتح الباب لظهور

(١) The Sufi orders in Islam, (J.S. Trimingham) Oxford University Press, (1971), P.117.

شياخات للطريقة موزعة إقليمياً بين أفراد أسرة الميرغني.

ولعلَّ من أوسع المناطق التي انتشرت فيها الطريقة الختمية، وأصبح لها فيها نفوذ كبير: السودان الشمالي والشرقي. وتعاقب على مشيخة الطريقة في هذه المنطقة عدة زعماء، من أهمهم: السيد الحسن (١٢٣٥هـ) الذي سبق أن زار السودان موفداً من قِبَل والده، وبعد وفاة والده أصبح شيخ الطريقة، وأسس له ولأتباعه مركزاً أطلق عليه: (الختمية)، بالقرب من (كسلا) في شرق السودان، وظل شيخاً للطريقة حتى وفاته عام ١٨٦٩م، وتولى أمر الطائفة من بعده ابنه محمد عثمان تاج السر.

وقد واكب دخول الختمية وانتشارها في السودان بدايات الحكم التركي المصري، وحظيت الطائفة وأتباعها برعاية المحتلين دون غيرهم من الطرق والطوائف، ونشأت علاقة متميزة بين

الفريقين[١]؛ ولذلك عندما قامت الحركة المهدية ضد الحكم المصري التركي، ثم الإنجليزي، كانت الختمية الطائفة الوحيدة التي ناصبت المهدية العداء، ووقفت مع الحكام الأجانب، وقاد زعماؤها حروباً عديدة ضد جيوش المهدية، وحاربوا في صفوف الإنجليز، الأمر الذي قوبل بالاستنكار والاستهجان، واضطر شيخ الختمية وزعيمها آنذاك (محمد عثمان الميرغني) الحفيد، إلى الهروب إلى مصر، وبقي بها حتى وفاته عام (١٣٠٣هـ/ ١٨٨٦م)[٢].

---

(١) انظر: نعوم شقير، مرجع سابق، ص: (٦٣٤).

(٢) المرجع نفسه، ص (٩٠٦ ـ ٩٠٩)، [تاريخ السودان الحديث] (ضرار صالح ضرار) طبعة رابعة/ ١٩٦٨م، دار مكتبة الحياة، بيروت، ص (١٥١، ١٥٢)، [تاريخ الحركة الوطنية في السودان] ١٩٠٠م/ ١٩٦٩م، (محمد عمر بشير) الدار السودانية للكتب، بدون تاريخ، [العروة الوثقى] (جمال الدين الأفغاني ومحمد عبده) ط. ثانية ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، دار الكتاب اللبناني ص (٢٣٦، ٢٣٧).

وحين تم القضاء على دولة المهدية واحتلال السودان مرة أخرى من قبل الحكم الثنائي: الإنجليزي، المصري عام ١٨٩٨م، رافق أحد زعماء الختمية (السيد علي الميرغني) الجيش الغازي للسودان، وساعد في حملة الغزو، كما استفاد منه الإنجليز فيما بعد، في محاولة محو آثار الحركة المهدية، وظل زعيم الطائفة يدين للإنجليز بالولاء؛ لمساعدتهم إياه في التمكين له بين أتباعه، وإعطائه مكانة متميزة مكافأة لخدماته لهم(١).

وحينما ظهرت طائفة المهدية من جديد، استغل الإنجليز الصراع القديم بين الطائفتين (الختمية ـ

(١) [مذكرات عبدالماجد أبو حسبو] (أبوحسبو) جـ١، ط. أولى، فبراير ١٩٨٧م، دار صنب للنشر والتوزيع، الخرطوم.
(Islam Nationalism and Commuinsm in A Traditional-Society, (Gabriel Warburg) Frank Cass, (1978) p.28, By the Same auther, The Sudan Under Wingate, P.99.

والأنصار)[١] في تحقيق أطماعهم، كما أن الطائفتين استطاعتا الهيمنة على مجريات الأمور في السودان، والسيطرة على الحركة السياسية.

وبينما تبنّى الأنصار أو (المهدويون) فكرة التعاون مع الإنجليز من أجل التدرج بالسودان نحو حكم ذاتي، تبنّى (الختمية) فكرة الاتحاد مع مصر، وضموا تحت لوائهم الأحزاب السياسية التي أيدت هذه الفكرة[٢]، وظل زعيم الختمية خلال هذه الفترة وبعد الاستقلال حتى وفاته عام (١٩٦٥م) يحرك الأحداث السياسية من وراء ستار.

وتولى زعامة الطائفة من بعده ابنه السيد (محمد عثمان الميرغني) الزعيم الحالي للطائفة، وتحت زعامته

---

(١) هم أتباع المهدي، وقد أطلق عليهم الأنصار تشبيهاً لهم بالأنصار الذين ناصروا الدعوة الإسلامية في بدايتها.

(٢) [تاريخ الحركة الوطنية في السودان]، مرجع سابق ص (١٨٣)، [مذكرات أبو حسبو] ص: (٩١، ٩٢، ١١٣).

ارتبطت الطائفة بالعمل السياسي المكشوف، وأصبح هو نفسه زعيماً للحزب السياسي (الاتحاد الديمقراطي)، الذي اتخذه واجهة للعمل السياسي، وتبنى من خلاله الدعوة إلى (الجمهورية الإسلامية) كشعار سياسي للحزب والطائفة معاً.

* * *

معتقدات الختمية ونظمها في العبادة والسلوك

الختمية طائفة صوفية تقوم معتقداتها وتدور حول قضايـــــا التصوف الرئيسة، كحقائق الوجود والزهد والعبادة، ويذهب الختمية أنفسهم ـ كما أسلفنا ـ إلى أن طريقتهم ـ التي اعتبروها خاتمة الطرق ـ قد استخلصوها من خمس طرق استمدوا منها تعاليمهم، وأخذوا منها أورادهـــــم، مع إضافات هنا وهنالك[١]، وإضافة إلى ميراث هذه الطرق، فإن الختمية ورثت أيضاً تيار الفكر الصوفي الذي بدأه الحلاج، وأضاف إليه، وعدّل فيه ابن عربي، وطوّره تلامذته من بعده، كابن سبعين، وابن الفارض، ويبدو أن الختمية قد اطّلعوا على هذا التُّراث الصوفـــــي، ووقفوا على أَفكار ابن عربي، ومعتقدات

---

(١) انظر: ما سبق، (ص٧)، هامش(١).

الجنيد، وشطحات الحلاج، وأشعار ابن الفارض، ونظريات عبدالكريم الجيلي، ومادخل على هذا الفكر من تجديد على يد الشاذلية والنقشبندية، كما أنّهم كانوا على معرفة بمسار هذا الفكر الصوفي في البيئات الشيعية في البلاد الشرقية، وترددت في كتب الختمية إشارات إلى أعلام هذا الفكر، لا سيما الجنيد، وابن عربي، وابن الفارض، الذين نقلوا منهم نصوصاً كثيرة وأقوالاً متعددة، واستشهدوا بأقوالهم شعراً ونثراً؛ لتدعيم فكرة معينة أو تأييد معتقد خاص(١).

وقد كان لهذا كله أثر واضح في صياغة معتقدات الختمية وما ظهر في عباداتهم وأذكارهم وأورادهم من بدع، فقد تسربت إلى عقائدهم أفكار أصحاب وحدة

---

(١) [مجموعة النفحات الربانية] المشتمل على سبع رسائل ميرغنية، للسادة الميرغنية وغيرهم، ط. ثانية: ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م، مطبعة مصطفى الحلبي وأولاده، مصر. انظر: الصفحات (٢٥، ٢٦، ٥٣، ١٣٣، ١٣٦، ١٤١، ١٤٧، ١٤٨).

الوجود كابن عربي، ودافعوا عن تلك الأفكار، وحاولوا تبريرها، وقالوا بفكرة النور المحمـــدي، أو الحقيقة المحمدية، والتي ظهرت أول ما ظهـــرت في دوائر الشيعة، ثم تسربت إلى دوائر الصوفية، فنادىٰ بها سهل التستري، وأَخذها فيما بعد ابن عربي، ووضعها في بناء مـذهبـه الفلسفـي، ثـم انتشـرت الفكـرة حتـى صـاغهـا عبدالكريم الجيلي في نظريته عن الإنســـان الكامـل، وترددت في دوائر الصوفية في أشكال مختلفة(١).

وقد تبنّتْ الختمية هذه الفكرة، وأصبحـت تمثل جوهر عقائدهم، وعبروا عنها نثراً وشعـــراً، وبسطوها لأتباعهم في موالدهم ومواجيدهم، وفي مدائحهم ومناجاتهم وأورادهم، وشاعت لديهم مصطلحات الوحدة والتجلّـي، والانبجـاس والظهـور، والفيـض والعقـل، واستشهدوا بما استشهدَ به أَصحاب هذه النظريات من

---

(١) انظر: [الفلسفة الصوفية في الإسلام] عبدالقادر محمود، دار الفكر العربي: ١٩٦٦م، ص (٤٨٧)، وما بعدها.

آيات أوَّلوهـــــا؛ لتعضد معتقداتهم، وأحاديث موضوعة ساقوها؛ لتؤيِّد أفكارهم(١)، فزعموا أن الرسول ﷺ هو ذلك النور الأزلي الذي سرى في الكون أزلاً، فكان مصدر وجود الكون وسببه، وأن الكون وجد به وله(٢).

كما ذهبوا إلى أن الرسول ﷺ لا تُدرك حقيقته، ويعجز الوصف عن بيان ذاته(٣)... إلى غير ذلك من التصورات الباطلـــــة المخالفة تماماً للإسلام وتصوره للأنبياء والرسل؛ إذْ أن الأنبياء في منظور الإسلام ليسوا

---

(١) انظر: [طائفة الختمية أُصولها التاريخية وعقائدها] (لكاتب هذا البحث) تحت الطبع.

(٢) انظر: [النفحات القدسية من الحضرة العباسية في شرح الصلاة المحمدية] (عبدالله المحجوب) ضمن [مجموع النفحات الربانية]، ص(١٢٠، ١٢٢). [النفحات المكية]، ص (٢٨، ٢٩)، [النور البراق في مدح النبي المصداق] (محمد عثمان الختم)، مكتبة القاهرة، دون تاريخ، ص: (١٤، ١٥).

(٣) [النفحات القدسية]، ص(١٢٨، ١٢٩، ١٤٤، ١٤٥).

آلهـــة، ولا أنصاف آلهة، ولا أبناء آلهة، بل هم بشر اصطفاهـم الله تعـالـى، ومـنَّ عليهـم بنعمـة الـوحـي، واختارهم لتبليغ رسالاته للناس، ومن ثم لاينبغي القول بأن حقيقتهم لا تدرك، فالذات التي لا يدرك كنهها هي ذات الله تعالى الذي ليس كمثله شيء وهو السميع البصير: ﴿ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ فَٱعْبُدُوهُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ وَكِيلٌ ﴿١٠٢﴾ لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلْخَبِيرُ ﴿١٠٣﴾﴾ [الأنعام: ١٠٢،١٠٣]، والحديث عن الرسول ﷺ بهذه اللغة وبمثل هـــذا الأسلــوب يلقي بظلال من الشرك على العقيدة، ويتضمن خللاً في المعتقد.

وتبعاً لهذا التصور للرسول ﷺ جعل (الختميةُ) الرســـولَ ﷺ غاية فنائهم، ومنتهى سيرهم، واعتبروا الفناء في ذاته موصلاً إلى الله سبحانه وتعالى، وأَطلقوا عليه لفظ: (الحجاب الأعظم) الذي يقوم بين السالك وبين الله تعالى، واتجهت هممهم ـ كما يقولون ـ إلى

الاستغراق في ذاته سعياً إلى الفناء فيه[١]، وتوجهوا إلى الله بالدعاء أن يبلغهم هذه الغاية، وينيلهم هذا المقصود، كما توجّهوا بدعائهم واستغاثتهم، ورفعوا شكواهم إلى الرسول ﷺ سائلينه: أن يفك ضيقهم، وينصرهم على عدوهم، ومخاطبين إياه بأنه مزيل الغم والكرب، ومفرِّج للهم والضيق، ولا تكاد تخلو قصيدة من قصائدهم في مدحه من معنى من هذه المعاني[٢].

---

(١) [مجموعة فتح الرسول] (محمد عثمان الميرغني الختم) مصطفى الحلبي، مصر ١٣٦٧هـ/١٩٤٨م، ص(١٩٧).
مجموعة الأوراد الكبير (محمد عثمان الميرغني) مصطفى الحلبي، مصر، ١٣٥٨هـ/١٩٣٩م، ص(٤٦-٥٥).

(٢) انظر: ديوان [النفحات المدنية في المدائح المصفوية] (محمد عثمان الميرغني)، ملحق بـ [النور البراق]، ص (٣٥)، انظر أيضاً: [النور البراق] ص(٢٩) و[ديوان شفاء القلوب والغرام في مدح من أضحى للأنبياء ختام] (هاشم محمد عثمان الميرغني)، مصطفى الحلبي، مصر، ١٢٥٥هـ/١٩٣٦م، ص(٢٥، ٢٦، ٤٥، ٤٦). [الديوان =

وادّعى الختمية أنهم يرون الرسول ﷺ يقظة، ويلقونه، وأنه يحضر قراءتهم ـ المولد ـ ويتلقون منه أشياء، ومنها ـ كما يزعمون ـ كثير من أسس الطريقة وأورادها وتعاليمها[١].

كما ادّعى مشائخ الختمية أنهم استمرار لمدد الرسول ﷺ، الذي أشرنا له من قبل، وبناءً على ذلك أعطوا أنفسهم من الصفات ما أعطوه له ﷺ، وأسبغوا على أنفسهم من القدرات ما أسبغوه عليه ﷺ، فزعموا أنهم المدخل للحضرات الإلهية، وأن مقامهم برزخ بين

= الكبير] المسمى [رياض المديح] (جعفر الصادق الميرغني)، المكتبة الثقافية/ بيروت، ص (٥، ٩، ١٢).

(١) [شرح الراتب] المسمى بـ[الأسرار المترادفة] (محمد عثمان الميرغني) ضمن مجموعة [النفحات الربانية]، ص (٩٥ـ١١٢). [مولد النبي] المسمى بـ[الأسرار الربانية] (محمد عثمان الميرغني)، ط. أولى ١٣٩٦هـ/ ١٩٧٦م. المكتبة الإسلامية/ الخرطوم، انظر: أيضاً [مجموعة فتح الرسول] ص(٨)، [تاج التفاسير]، جـ١، ص(١٤٦).

النبوة والولاية، وادّعوا القدرة على التصرف في الكون، وزعموا أنهم يغيثون من يلتجئ إليهم، ويحتمي بحماهم، فيزيلون كربات المكروبين، وهَمَّ المهمومين، وأنهم الوسيلة للسعادة في الدنيا، والنجاة من العذاب يوم الدين.

ومن ثم دعوا الناس إلى اتباعهم، وإلى الاعتقاد فيهم بهذه المعتقدات الباطلة(١)، ونتيجة لهذا كله ساد في أدب الختمية توسل بعضهم ببعض، وساد في أدب أتباعهم التوسل بهم، والتوجُّه إليهم بالدعاء، وطلب العون والنصرة، وتفريج الكروب، وإزالة الهموم، وإغاثة الملهوف... إلى غير ذلك من أنواع الدعاء والتوجه التي لا ينبغي أن تكون إلا لله تعالى(٢).

---

(١) ديوان [مجمع الغرائب المفرقات من لطائف الخرافات الذاهبات]، (محمد عثمان الميرغني الختم). مصطفى الحلبي، مصر ١٣٥٥هـ/١٩٣٦م، ص(٦٠، ٦١). ديوان [شفاء القلوب]، ص(٧٤-٧٧).

(٢) ديوان [النفحات المدنية] ص (٤٦، ٤٧). [اللؤلؤة الحسن =

ولا شك أن مثل هذه المعتقدات الباطلة والتصورات الفاسدة، بما تضمنته من غلو قد يؤدِّي إلى الشرك المحقق، مصادمة تماماً لصريح القرآن الذي أكّد أن الله سبحانه وتعالى هو وحده المنفرد بالخلق والتصرف والتدبير والتقدير، ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ۝٥٤﴾ [الأعراف: ٥٤]، ﴿لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ يُحْيِي وَيُمِيتُ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ۝٢﴾ [الحديد: ٢]، ونفى أن يكون لغيره سبحانه تصرف في الكون، وبيّن أن من عدا الله عاجزون عن نصرة أنفسهم، فهم عن نصرة غيرهم أعجز: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ۝١٣﴾ [فاطر: ١٣] ومن ثم فإن الاستغاثة بهم لا فائدة منها ولا جدوى، بل تقود إلى الشرك: ﴿أَمَّن يُجِيبُ

= الساطعة في مناقب السيد محمد عثمان الميرغني الختم] (جعفر الميرغني)، ضمن مجموعة [النفحات الربانية]، ص(٤٦). ديوان [مجمع الغرائب]، ص(٢٤، ٢٥، ٢٦، ٣٥، ١٤١، ١٤٢) [الديوان الكبير] ص (٣٣، ٣٤). [ديوان شفاء القلوب]، ص (١٢١، ١٢٢).

ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ ﴾ [النمل: ٦٢]، ﴿ قُلْ مَن يُنَجِّيكُم مِّن ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ تَدْعُونَهُۥ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً لَّئِنْ أَنجَىٰنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٦٣﴾ قُلِ ٱللَّهُ يُنَجِّيكُم مِّنْهَا وَمِن كُلِّ كَرْبٍ ثُمَّ أَنتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٦٤﴾ ﴾ [الأنعام: ٦٣، ٦٤].

أما في مجال العبادة والذكر: فللختمية مجموعة من الأوراد، والأدعية والأذكار، وبعض الآداب في الذكر والدعاء، مَيّزوا بها أنفسهم، وركّزوا عليها دون غيرها، كما اهتموا أيضاً بإقامة احتفالات معينة، وإحياء مناسبات خاصة؛ كإحياء ذكرى مولد النبي ﷺ، والاحتفاء بمولد ووفاة بعض مشايخ الطريقة، وإقامة ما يعرف لديهم بليالي الذكر (الحوليات)، إحياء لتلك المناسبات.

وفي هذا كله تسربت إليهم بعض البدع، وشاعت بينهم كثير من المنكرات التي تتعلّق بالذكر وألفاظه وغاياته وأهدافه، فجعلوا من أذكارهم الذكر بالاسم المفرد مثل: (الله) و(هو)، وعدّوا ذلك في المراتب

العليا من مراتب الذكر[١]، مع أنه في حقيقة الأمر من البِدَع المنكرة، والكلمات التي لا تفيد معنى، ولا تحدث في القلب هداية، وتضمنت أذكارهم كثيراً من المعاني الباطلة التي تدل على المعتقدات الفاسدة حول التجلي والحلول والفناء، كما أنهم خصصوا أذكاراً معينة، وأوراداً محددة بأيام خاصة، وأوقاتاً بعينها، من غير دليل شرعي أو سند من أثر.

ويغلب على أورادهم وأذكارهم السجع المتكلَّف الذي يصرف الذهن عن التوجُّه إلىٰ الله بصدق، ومخاطبته تعالىٰ بإخلاص، إضافة إلى ذلك فإن أذكارهم اشتملت على بعض الألفاظ الأعجمية، والأسماء الغريبة، لا سيما في تلك الأدعية الموجّهة لمخاطبة الجن، والسعي إلى اكتساب القدرة على تسخيرهم،

---

(١) [النفحات المكية] (ص ٢٢)، في نقد هذا النوع من الذكر، انظر: [مجموع الفتاوى] (ابن تيمية) جـ١٠ ص (٢٢٦، ٢٢٧).

وجعلهم في خدمتهم، والسيطرة عن طريقهم على الناس، أو التصرف في الكون كما يزعمون[١].

وهكذا نرى أن أذكار الختمية وأورادهم بعيدة كل البعد عن الأذكار الواردة في القرآن، والمأثورة عن الرسول ﷺ؛ بل تشيع فيها البدع والمنكرات، والشعوذة والضلالات التي لا أساس لها من الشرع.

وقد اهتم الختمية بالخلوة كوسيلة من وسائل الطريق إلى الله تعالى، وتتضمن الخلوة عندهم كثيراً من البدع في منهجها وهدفها: فهدف الخلوة الأساسي عندهم هو الوصول إلى الحضرة الإلٰهية، وحدوث التجليات والكشف، ولا شك أن هذا ليس هو هدف العبادة في الإسلام، ويطلبون في الخلوة المدد من الرسول ﷺ وجبريل ومشائخ الطريقة، وهذا كله من الأمور المنكرة، فلا يطلب المدد والعون إلا من الله تعالى.

---

(١) انظر: الدراسة المشار إليها في هامش(١) ص(٢٠).

ويطلبون من المريد في خلوته استحضار صورة شيــــخ الطريقة السيد/ محمد عثمان، حتى تظهر له روحانية، ويظل على هذه الحال حتى يظهر له نور من جهة القلـــب، ويظل الحال هكذا حتى تظهر للمريد روحانية النبي ﷺ.

وهذه كلها من الأمور المبتدعة التي لا أساس لها في الإسلام، وليست أثراً من آثار العبادة المشروعة، بل إن ذلك صرف للعبادة عن الله تعالى، وتوجيه فكر المريد وخياله إلى بعض الخلق كشيخه، وفي هذا ما فيه من أنواع الشرك وأنواع البدع؛ إذ أن العبادة ينبغي أن تكون خالصة لله تعالى، لا شركة لأحد من خلقه فيها، لا بتوسط ولا طلب ولا دعاء.

كمـا أن الخلـوة، عنـد الختميـة تتضمـن أوراداً معينة، وأذكـــاراً خاصة، وبأعداد محصورة، وكل ذلك من غير سندٍ شرعي(١).

---

(١) [مجموعة الأوراد الكبير] ص (٦٣ ـ ٦٦).

وأخيراً، فإن للختمية بيعة خاصة للدخول في الطريق، لها طقوس معينة تتمثل في ترديد صيغة معينة، يلتزم فيها المريد بأن يتخذ الشيخ محمد عثمان الميرغني ولياً له في الدنيا والآخرة، كما تشتمل على ترديد كلمات أعجمية لا يُعرَف معناها، وطلاسم لا فائدة منها، وهذه كلها من البدع المنكرة، والكلام الذي لا حقيقة له، كما يقول شيخ الإسلام ابن تيمية(١).

---

(١) المصدر نفسه، ص: ٦٢، ٦٣، ١٣٥، وفي نقد هذا النموذج للبيعة، انظر: [مجموع الفتاوى] (ابن تيمية) جـ١١، ص(٥١).

الختميــة والتشيــع

الختمية طائفة صوفية محضة، ورغم ما يبدو من خلاف جذري بين التصوف والتشيع، فإن هناك ما يشير إلى وجود أُصول مشتركة بينهما، ويظهر ذلك أَحياناً في صورة تأثير التشيُّع على الحركة الصوفية.

وقد عالَجَ مصطفىٰ كامل الشيبي ظاهرة الصلة بين التشيع والتصوف، فأَثبتَ وجود صلة بينهما في الانتماء التاريخي، إذ أن سلاسل الصوفية تلتقي مع الشيعة في الإمام السادس من أئمتهم، كما أن هناك مظاهر مشتركة بين معتقد الإمامة لدى الشيعة والولاية لدى الصوفية... إلى غير ذلك من قضايا ومسائل متشابهة بين الفريقين[١].

---

(١) انظر: [الصلة بين التصوف والتشيع] (كامل مصطفى الشيبي) دار المعارف، مصر، ط. ثانية ١٩٦٩م.

ورغـــم هـــذه الصلة فإننا لا نجد أن إحدى الطرق الصوفية تدَّعي هذا الانتماء أو تتشرف به، فيما عدا الارتباط العام لدى الصوفية بأهل البيت، أما الختمية فنجد أن لها ـ بدءاً من مؤسس الطريقة ـ ارتباطاً بالشيعة، أو على الأقل بأئمتهم الاثني عشر، وأن المعاصرين من الختمية يتبنون بعض مقولات الشيعة في الإمامة وأَهل البيت، ويستفيدون من الأدب الشيعي وحججه؛ للدفاع عن تلك المقولات؛ بل إن هناك محاولة لدى بعض الختمية المعاصرين للربط بين الطائفتين في التوجه والمستقبل والمصير، كما سنرى.

مشائخ الختمية وأئمة الشيعة الاثني عشرية

يرتبط الختمية من ناحية نسبهم ـ كما يقولون ـ بأئمة الشيعة الاثني عشرية، وقد أورد السيد جعفر الميرغني نسب والده محمد عثمان الختم، مؤكداً ذلك على النحو التالي، فقال: (إنه(١) محمد عثمان بن(٢) السيد محمد أبي بكر(٣) بن مولانا السيد عبدالله الميرغني المحجوب(٤) بن السيد إبراهيم(٥) بن السيد حسن(٦) بن السيد محمد أمين(٧) بن السيد علي الميرغني(٨) بن السيد حسن(٩) بن ميرخورد(١٠) بن حيدر(١١) بن حسن(١٢) بن عبدالله(١٣) بن علي(١٤) بن حسن(١٥) بن السيد حيدر(١٦) بن ميرخورد(١٧) بن حسن(١٨) بن أحمد(١٩) بن علي(٢٠) بن إبراهيم(٢١) بن يحي(٢٢) بن حسن(٢٣) بن بكر(٢٤) بن علي(٢٥) بن محمد(٢٦) بن

إسماعيل(٢٧) بن ميرخورد البخاري(٢٨) بن عمر(٢٩) بن علي(٣٠) بن عثمان(٣١) بن علي المتقي(٣٢) بن الحسن الخالص(٣٣) بن علي الهادي(٣٤) بن محمد الجواد (٣٥) بن علي الرضا (٣٦) بن موسى الكاظم (٣٧) بن الإمام جعفر الصادق (٣٨) بن محمد الباقر (٣٩) بن زين العابدين(٤٠) بن الحسين(٤١) بن علي بن أبي طالب كرّم الله وجهه، وابن الزهراء البتول)(١).

وفي مقدمة كتابه: [لؤلؤة الحسن]، حَمدَ (جعفر الميرغني) اللهَ الذي جعلهم منتمين إلى أهل البيت المطهر بنص الآيات القرآنية، ومن الذين أودع الله فيهم سر النبوة، وشفعهم في أمة جدهم محمد ﷺ، فيقول: (وأشكره على أن دلَّنا بالتمسك والانتماء لخلاصة الوجود، المطهرين بنص الآيات تطهيراً سبق لهم في الأزل بخالص الكرم والجود، وأوجب لهم إنافة المقام،

---

(١) [لؤلؤة الحسن الساطعة] ص (٣٩، ٤٠).

وعلو القدر في عالم الغيب والشهود، وصرحت بذكره ألسنة أفواه آيـــة: ﴿رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾ [هود: ٧٣]، فبان بذلك رفع الشأن... وأشهد أن لا إله إلا الله الحاكـــــم بالتقدير لهذه النسبة في الدارين، المانح لهم الشفاعة في أمة جدهم سيد الكونين، المودع سر النبوة فيهم، فبه دائماً صباح وجوههم مسفرة تقر برؤيتها كل عين)[١].

وهكذا ينتسب الختمية ـ كما يقول أحدهم ـ إلى رسول الله ﷺ، من خلال الأئمة الاثني عشر، الذين التفت حولهم الأُمة الإسلامية بقلوبها وجوارحها في القرون الأولى من الإسلام ـ بزعمه ـ.

وبعد أن أوردَ هذا الكاتب سلسلة النسب أعلاه قال: (وكما هو واضح من النسب أعلاه، فــإن الســادة المراغنة ينتسبون إلى الأئمة الاثني عشر، عظماء الأُمة المحمدية، ووارثــي علــم المصطفى وباب مدينة العلم

---

(١) المرجع نفسه، ص: (٣٨).

(عليّ) وشهرتهم تغني عن التعريف بهم، فقد كانوا أقمار السموات ونجوم الأرضين)[١].

ومعلوم أن المراد بالأئمة الاثني عشر ـ في هذه الإشارة ـ أئمة الشيعة الذين يبدأون بعلي، ثم الحسن والحسين، وينتهون ـ كما يقول الشيعة ـ بمحمد بن الحسن العسكري (المهدي الغائب أو المنتظر)، وعند هذا الأخير (الثاني عشر) تقف سلسلة الأئمة عند الشيعة؛ لأنه اختفى أو غاب غيبة صغرى، ثم غيبة كبرى، لم يظهر بعدها حتى الآن.

ونسب الختمية بهذا التسلسل، ودعوى ارتباطهم بالأئمة الاثني عشر، يثير عدة إشكالات:

أولها: أنه يوجد اضطراب في عدد هذه السلسلة، إذْ أن فيها ثلاثة أسماء وردت في رواية جعفر

---

(١) [الختمية: العقيدة والتاريخ والمنهج] (محمد أحمد حامد محمد خير)، دار المأمون/ الخرطوم، ط. ثانية ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٧م، ص (٣٢).

هذه (١٥، ١٦، ١٧) لم ترد في الروايات الأخرى، كما أن الاسم (حسن)(٢٢) ورد في روايات أخرى باسم (عيسى)، والاسم (بكر)(٢٣) ورد باسم (أبي بكر).

ثانيها: أن سلسلـــة هذا النسب تثبت أن الحسن الخالص (٣٢) أو الحسن العسكري، الإمام الحادي عشر عند الشيعة، له ابن، هو (علي التقي)، ومنه انحدر المراغنة، وهذا ما لا يقول به الشيعة أنفسهم؛ لأنهم يدعون أن ابن الحسن العسكري هو (محمد المهدي) الذي اختفى وهو غلام في الخامسة أو الثالثة من عمره، فضلاً عن أن بعض المؤرخين ينكرون وجود ابن للحسن العسكري في الأساس، الأمر الذي يؤدي إلى الشك في تسلسل نسب المراغنة بهذه الصورة التي وصفوها.

ثالثها: أن هـــذا النســـب، لو صح في بدايته، فلا شك أنه في وقت متأخر قد اختلط ببعض الدماء الأعجمية، وما اسم(ميرخورد) الذي وردَ أكثر من مرة، واسم (ميرغني) الذي يقول المراغنة: إنـه اسم فارسي، إلا أوضح دليل على ذلك.

وسواء صحّ هذا النسب أم لم يصح فينبغي أن يُعلم أن الناس في مفهوم الإسلام لا يتمايزون لأنسابهم، ولا يتفاضلون لأحسابهم، بل إن الإسلام وضع التقوى مقياساً لكرامة الإنسان وفضله: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وأكد الرسول ﷺ هذا المعنى في قوله: «**لا فضل لعربي على عجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأبيض على أسود، ولا لأسود على أبيض، إلا بالتقوى، الناس من آدم، وآدم من تراب**».

شيوخ الختمية وأهل البيت

حاول أئمة الختمية أن يستندوا في دعواهم الولاية والرعاية، ووجوب الطاعة لهم، والانقياد لأمرهم، إلى دعوىٰ أنهم من أهل بيت الرسول ﷺ، وأنهم من ثم معصومون، ومغفـــورة ذنوبهـــم، وفي هذا المقام استشهدوا بما استشهد به الشيعة من آيات ساقوها لإثبات عصمة أئمتهم، وإمامة علي، وولاية أهل البيت، واستندوا إلى ما استند إليه الشيعة من أحاديث موضوعة، لإسناد هذه الأفكار، وهنا ترى الأثر الشيعي واضحاً في أفكار هذه الطائفة وأدبها.

وقد رأينا من قبل كيف أن جعفر الميرغني يدَّعي أنهم ورثوا سر النبوة وأصبحت لهم الشفاعة في الأمة بفضل هذ النسب النبوي.

ويقول أحد الختمية المعاصرين: (البيت الميرغني ـ أيها القارئ الكريم ـ ينتمي إلى الرسول ﷺ،

وهذا النسب الطاهر تعهد المولى سبحانه بحفظه في كتابه المكنون، قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴾ [الأحزاب: ٣٣]. والرجس: يعني الضلال والذنب، والمعنى: أن الله سبحانه وتعالى يشهد بأنهم مبرؤون من الزيغ والضلال، وأن ذنوبهم مغفورة)[١].

وقد استدلّ الشيعة من قبل بهذه الآية لإثبات أحقية عليّ بالإمامة، وقالوا: إنّها نزلت في حق عليّ وفاطمة والحسن والحسين، بنص ما يُعرف بحديث الكساء، ومن ثم فهي تدل على عصمتهم دلالة مؤكّدة، وغير المعصوم لايكون إماماً[٢].

ورغم صحة حديث الكساء فإن الآية والحديث

---

(١) المرجع نفسه، ص: (٩).
(٢) [مجمع البيان في تفسير القرآن] (أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي) دار مكتبة الحياة، بيروت ١٣٨٠هـ/ ١٩٦٠م، جـ٢٢ ص١٣٧ـ ١٣٩، [التبيان]، الطوسي جـ ٨ ص (٣٤٠).

لا يتضمنان القول بعصمة أهل البيت، أو القول ببراءتهم من الذنوب، كما يدّعي الشيعة والمراغنة، بل يفيدان أن الرسول ﷺ دعا لأهل بيته المذكورين: أن يذهب الله عنهم الرجس ويطهرهم تطهيراً، وغاية ذلك أن يكون دعاءً لهم بأن يكونوا من المتقين الذين أذهب الله عنهم الرجس وطهرهم.

وقد حاول الشيعة حصر آل البيت في فاطمة وعليّ وأولادهما، وأخرجوا بذلك أمهات المؤمنين وأزواج رسول الله ﷺ من آل البيت، ولكن يردّ هذا الفهم سياق الآية نفسها، وفهم المفسرين لها، وقد بيّن ابن كثير في تفسيره للآية: أن هذا نص في دخول أزواج النبي ﷺ في أهل البيت هاهنا؛ لأنهن سبب نزول الآية، ولكن يدخل معهن غيرهن بنص الأحاديث التي تدل على أن المراد أعم من ذلك[١]، ويتصل بهذا ما ورد من أحاديث

---

(١) [تفسير القرآن العظيم] (ابن كثير) جـ٣ ص(٤٨٣). [فتح القدير] (الشوكاني) جـ٤ (ص٢٧٩، ٢٨٠).

عن العِتْرَة[١] ، (أو الثقلين)، والتي أورد فيها الشيعة روايات ضعيفة، وتابعهم الختمية فيها، ومن ذلك كما رواه الترمذي: أن الرسول ﷺ قال: «**إنِّي تارك فيكم خليفتين: كتاب الله: حبل ممدود من السماء إلى الأرض، وعترتي: أهل بيتي، فإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض، فانظروا كيف تخلفوني فيهما**».

فهذه شهادة عظيمة ـ كما يقول أحد الختمية ـ من الرسول بأن أهل بيته لا يضلون إذا ضل الناس، وأنهم سيبقون على الحق إلى يوم القيامة[٢].

ومن قبل أورد الشيعة روايات متعددة لهذا

---

(١) عترة الرجل: أخص أقاربه، وعترة النبي ﷺ: بنو عبدالمطلب، وقيل: أهل بيته الأقربون: وهم أولاده، وعلي وأولاده إلخ.. انظر: [النهاية في غريب الحديث والأثر] (ابن الأثير) تحقيق (طاهر أحمد الزاوي)، و(محمود محمد الطحان)، المكتبة العلمية، بيروت، جـ٣، ص(١٧٧).

(٢) [الختمية] ص(٩).

الحديث، استنبطوا منها وجوب اتباع الأئمة من أهل البيت دون غيرهم، والتمسك بأقوالهم، ولزوم طاعتهم، واعتبروا هذه الأحاديث من الأدلة الواضحة على وجوب إمامة علي؛ لأنه سيد أهل البيت، فطاعته واجبة على الكل، ومن ثم ينبغي أن يكون الإمام دون غيره[١].

وهناك رواية صحيحة لهذا الحديث، أوردها مسلم في صحيحه من رواية زيد بن أرقم رضي الله عنه: أن الرسول ﷺ وعظَ الناس في غدير خم، وقال بعد أن حمدَ الله وأثنىٰ عليه: «**أما بعد: ألا أيها الناس، فإنما أنا بشر يوشك أن يأتيني رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم ثقلين: أولهما: كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب الله واستمسكوا به**». فحثّ على كتاب الله ورغب فيه، ثم قال: «**وأهل بيتي، أذكركم الله في أهل**

---

(١) انظر: [المراجعات] (عبدالمحسن شرف الدين الموسوي)، دار التعارف للمطبوعات، ط. الثامنة عشرة ١٣٩٨هـ/ ١٩٧٨م، ص (٥١ ـ ٥٦).

بيتي»، فقال له حصين: ومَنْ أهل بيته يا زيد؟ أليس نساؤه من أهل بيته؟ قال: نساؤه من أهل بيته، ولكن أهل بيته من حرم الصدقة بعده، قال: ومن هم؟ قال: آل علي، وآل عقيل، وآل جعفر، وآل عباس، قال: كل هؤلاء حرم الصدقة؟ قال: نعم[١].

وقد أوردَ ابن تيمية نص هذه الرواية، وعلّق عليها قائلاً: (وهذا مما انفردَ به مسلم، ولـم يروِه البخاري، وقد رواه الترمذي وزاد فيه: «**وإنهما لن يفترقا حتى يردا علي الحوض**»، وقد طعنَ غير واحد من الحفّاظ في هذه الزيادة، وقال: إنها ليست من الحديث، والذين اعتقدوا صحتها قالوا: إنما يدل على أن مجموع العِتْرَة الذين هم بنو هاشم لا يتفقون على ضلالة، وهذا ما قالته طائفة من أهل السنة، وهو من أجوبة القاضي أبي يعلى

(١) [صحيح مسلم، الجامع الصحيح]، دار المعرفة/ بيروت. كتاب فضائل الصحابة (باب فضائل علي)، جـ٧، ص (١٢٢، ١٢٣).

وغيره، والحديث الذي في مسلم إذا كان النبي ﷺ قد قاله، فليس فيه إلا الوصية باتباع كتاب الله والتمسك به، وليس فيه الأمر باتباع العِتْرَة، ولكن قال: «**أذكركم الله في أهل بيتي**» (ثلاثاً)، وتذكير الأمة بهم يقتضي أن يذكروا ما تقدم الأمر به من إعطائهم حقوقهم والامتناع عن ظلمهم)[1].

ويغالي أحد الختمية في أهل البيت، فيجعلهم عدل الكتاب، وأن من لم يوالهم يعتبر كافراً، فيقول بعد أن يورد حديث (العِتْرَة): (فقدم النبي ﷺ في هذا الحديث وغيره العِتْرَة على السنة الغراء؛ لأن السنة دون الكتاب، وأهل البيت هم أعدال الكتاب، والكتاب بكل ما فيه نصف، وهم رضي الله عنهم النصف الآخر، فمن عمل بكل مافي الكتاب ولم يوالهم؛ فقد آمن ببعض الكتاب وكفر ببعض، والكفر بالبعض كفر بالكل، وإن

---

(١) [منهاج السنة النبوية] (ابن تيمية) طبع جامعة الإمام محمد ابن سعود الإسلامية، الرياض، ١٤٠٦م ـ جـ٧ ص(٣١٨).

عمل بالبعض الذي آمن به ولم يترك منه حرفاً واحداً).

ولا شك أن هذا فهم منحرف للحديث؛ فليس في الحديث تقديم للعِتْرَة على السنة، أو مساواتهم للكتاب كمصدر للتلقِّي وأخذ الدين، بل إن الأحاديث الصحيحة التي ورد فيها اسم (العِتْرَة) تدل على مراعاة حقوقهم وعدم ظلمهم كما أشرنا، ولا تفيد التلقِّي منهم أو وجوب طاعتهم، أما السنة فإنها مكملة للكتاب ومبيِّنة لأحكامه، ومن ثم ورد في الأحاديث الصحيحة أنها مصدر التلقِّي كالقرآن: «**تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا: كتاب الله، وسنتي**».

ومما يدل على تأثر الختمية وأخذهم بأدب الشيعة في هذا المقام: أنهم يوردون نفس ما استدل به الشيعة من آيات وآثار، فيذهب أحدهم إلى أن آل البيت هم المشار إليهم بحبل الله في قوله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْۚ﴾ [آل عمران:١٠٣]، وينسب هذا التفسير إلى الإمام الشافعي وجعفر الصادق، فيقول: ولـــذا فإن بعض المفسِّرين لقول الله تعالى: ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ

جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ فسروا حبل الله بأنه آل بيت رسول الله ﷺ، وهو تفسير الإمام الصادق، والإمام الشافعي، رضي الله عنهما(١).

وهذا التفسير للآية أورده الشيعة، ونقله عنهم الثعالبي من غير تثبت من صحته، وهو تفسير مخالف لما ورد في التفاسير المأثورة، من أن المراد بحبل الله هو الكتاب، أو عهد الله، ولما بينه الرسول ﷺ في حديثه من أن هذا الكتاب هو حبل الله المتين، وهو النور المبين، ومخالف أيضاً لما أُثِرَ عن علي رضي الله عنه في وصف القرآن بأنه حبل الله المتين وصراطه المستقيم(٢).

ويؤول الختمية كلمة (النور) بأن المراد بها: الأئمة، يقول أحدهم: (وقال الإمام الباقر في تفسير

---

(١) [الختمية]، ص: ١٠.

(٢) انظر: [تفسير ابن كثير]، جـ١، ص (٣٨٨،٣٨٩)، [فتح القدير] (الشوكاني) جـ١، ص (٣٦٧، ٣٦٨).

قولـــه تعالـــى: ﴿ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ وَٱلنُّورِ ٱلَّذِىٓ أَنزَلْنَا ﴾ [التغابن: ٨] قال: وهذا النور هو والله: الأئمة من آل محمد ﷺ إلى يوم القيامة).

وهذه الرواية أوردها الكلْبي ـ حجة الشيعة ـ في كتابه [الكافي] الملـيء بالأحاديث الموضوعة عن محمد الباقر وابنه جعفر الصادق، وغيرهم من آل البيت رضي الله عنهم، وقد أورد ابن كثير في تفسير الآية: أن النور هو القرآن؛ لأنه نور يُهتدى به من ظلمة الضلال[1].

(١) [تفسير ابن كثير]، جـ٤، ص (٣٧٥). انظر أيضاً: [فتح القدير]، جـ٥، ص(٢٣٦).

الختمية ومقولات الشيعة في الإمامة

إنّ محاولة إثبات أن المراغنة هم من أهل البيت، ومن ثم تجب طاعتهم ومودتهم والاعتراف برعايتهم، دفعت الختمية إلى تبنِّي مقولات الشيعة في الإمامة، والأخذ بما أخذ به الشيعة من أدلة وحجج لإثبات النص على إمامة علي والأئمة من بعده، واستشهد الختمية في هذا المقام بما استشهد به الشيعة من آيات قرآنية تدل - في زعمهم - على ولاية علي، ومن أحاديث تنص - كما يدعون - على إمامته، فيقول أحد الختمية المعاصرين: (إن ولاية أهل البيت على المؤمنين ذكرها المولى سبحانه في كتابه المكنون، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾﴾ [المائدة: ٥٥]، فقد روى الطبراني والنسائي وابن عساكر: أن سائلاً دخلَ المسجد، وكان سيدنا علي يصلي، فرمى له بخاتمه وهو راكع؛ لأن السائل لم

يحصل له شيء من الموجودين، فنزلت الآية، وهي توضِّح ولاية أمير المؤمنين (علي) على الأُمة المحمدية، وولاية أبنائه من بعده)(١).

وهذا هو نفس الفهم للآية الذي ذهب إليه الشيعة وربطوا فيه سبب نزول الآية ببعض الأحاديث التي تشير إلى حادثةِ تَصَدُّقِ عليٍّ بخاتمه وهو يصلي، وبعد أن يورد جملة من هذه الأحاديث يقول الطوسي أحد علماء الشيعة: اعلم أن هذا الآية من الأدلة الواضحة على إمارة أمير المؤمنين عليه السلام، ووجه الدلالة فيها: أنه قد ثبت أن المولى في الآية بمعنى: الأَوْلى والأحق، وثبت أن المعني بقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ أمير المؤمنين عليه السلام، فإذا ثبت هذان الأصلان دلّ على إمامته؛ لأن كل من قال: إن معنى الولي في الآية ما ذكرناه، قال إنها خاصة فيه، ومن قال باختصاصها فيه (عليه السلام)

---

(١) [الختمية]، ص (١٠).

قال المراد بها الإمامة)[١].

وقول الشيعة، ومن تبعهم من الختمية، بأن هذه الآية نزلت في علي غير صحيح؛ بل إن الأحاديث الثابتة الصحيحة تبيِّن أن هذه الآية وما قبلها من الآيات التي تتحـــدث عن الولاء، نزلت في عبادة بن الصامت رضي الله عنه، حين تبرأ من ولاية اليهود: ورضي بولاية الله ورسوله والمؤمنين؛ ولهذا قال الله تعالى بعد هذا: ﴿وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [المائدة: ٥٦]. فالآية إذن عامة للمسلمين جميعاً، تحثهم على إخلاص الولاية لله ورسوله، وولاء بعضهم لبعض[٢].

---

(١) [التبيان] (الطوسي)، مجلد٣ ص٥٤٩، في أسباب نزول هذه الآيـــة والأحاديـــث التي تربط نزولها بعلي وتصدقه بخاتمه في الصلاة. انظر: مجمع البيان (الطبرسي) جـ٢٦، ص (١٢٦ ـ ١٢٨).

(٢) [تفسير ابن كثير]، جـ٢ ص(٦٨،٦٩)، [منهاج السنة النبوية] (ابن تيمية) جـ٧، ص(٥ـ٣١).

أما الآثار التي أوردها الشيعة ومن تبعهم، وربطوا فيها نزول الآية بعلي وحادثة تصدقه بخاتمه وهو راكع، فقد ذهب ابن كثير إلى أنه لا يصح فيها شيء بالكلية؛ لضعف أسانيدها، وجهالة رجالها[١]، هذا بالإضافة إلى أن فهم هؤلاء للآية لا يستقيم ومقررات الشرع، وقد بيّن ابن كثير ذلك بقوله: (وقد توهم بعض الناس أن هذه الجملة ﴿وَهُمْ رَٰكِعُونَ ۝٥٥﴾ في موضع الحال من قوله: ﴿وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ أي: حال ركوعهم، ولو كان هذا كذلك لكان دفع الزكاة في حال الركوع أفضل من غيره؛ لأنه ممدوح، وليس الأمر كذلك عند أحد من العلماء ممن نعلمه من أئمة الفتوى)[٢].

ويذهب الشوكاني إلى أن مما يدفع هذا الفهم للآية: عدم جواز إخراج الزكاة في تلك الحال[٣].

---

(١) [تفسير ابن كثير]، جـ٢، ص(٧١).
(٢) المرجع نفسه، جـ٢، ص٧٢.
(٣) [فتح القدير]، جـ٢، ص (٥١).

وغاية ما في الآية كما يقول ابن تيمية: أن المؤمنين عليهم موالاة الله ورسوله والمؤمنين، فيوالون عليّاً من جملة المؤمنين، وهذا المعنى الواضح للولاية في هذه الآية، وليس المراد بها الإمارة كما ذهب الشيعة(١).

وأورد الختمية أيضاً ما يعرف لدى الشيعة بحديث (الغدير) واتخذوه دليلاً على ولاية عليٍّ رضي الله عنه، فقال أحدهم: (ومن أوضح الأحاديث، التي توضِّح ولاية سيدنا علي على الأمة، قول الرسول ﷺ في حديث غدير خم: «**من كنت مولاه فعلى مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه**»).

وقد ربط الشيعة بين هذا الحديث وبين قول الله تعالى: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ۖ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُۥ ﴾ [المائدة: ٦٧]. وقالوا: إنه حينما نزلت هذه الآية كان الرسول عليه الصلاة والسلام في

---

(١) [منهاج السنة النبوية]، ج٧، ص(٢٩).

طريق عودته من حجة الوداع، فلّما بلغَ (غدير خم)، أخذ بيد علي وخاطب جماعة المسلمين قائلاً: «**يا معشر المسلمين، ألست أولى بكم من أنفسكم؟**» قالوا: بلى، قال: «**من كنت مولاه، فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه، وانصر من نصره، واخذل من خذله، وأدر الحق معه حيث دار، ألا هل بلغت - ثلاثاً -**».

وزعمت الشيعة بأن هذا نص صريح في ولاية علي، وفسروا المولى هنا بمعنى: الأولى بالتصرف، وذهبوا إلى أن كونه أولى بالتصرف عين الإمامة[1].

وقد أخذ الختمية برواية الشيعة هذه، وربطوا بينها وبين آية المائدة، وتبنوا ما استنتج الشيعة منها من نتائج، ويقول أحد الختمية: (كان الرسول ﷺ يتحاشى

---

(١) [مجمع البيان] (الطبرسي)، جـ٦، ص(١٥٢ـ١٥٣)، [المراجعات] (عبدالمحسن شرف الدين الموسوي)، ص: ٣١٥، وما بعدها.

كثيراً عن الإخبار بخصائص أمير المؤمنين رضي الله عنه؛ خوفاً من بسط المنافقين ألسنتهم في رسول الله ﷺ بأنه يميز قرابته على غيرهم، وكان لا بد من الإخبار بولاية أمير المؤمنين وأهل البيت؛ لأن ذلك من أصول الدين لا من فروعه، حتى لم يبقَ للرسول صلى الله عليه وعلى آله وصحبه وسلم في الدنيا إلا أيام قلائل، وضاق الأمر ونزل على رسول الله ﷺ ما يشبه التهديد في (غدير خم)، وهو قوله: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِۗ ﴾، فما كان من الرسول ﷺ إلا أن رد من سبقه إلى المدينة، وانتظر من تخلف حتى لحق به في خماء بعد أن نزل ﷺ تحت شجرات قممن وظللن له ﷺ بثوب على شجرة سمرة، حتى اجتمع عليه من سبقه ومن تخلف عنه، فقام فيهم خطيباً فصدعَ في ذلك الملأ الكريم بما أمره الله بتبليغه.. وكانت الفرائض مفروضة، والسنن مسننة، والحدود قائمة، والحلال بيِّناً والحرام بيِّناً، إذاً ما الذي كان ينقص الدِّين حتى نزلت هذه

الآية؟ ما كان ينقص الدين إلا إعلان ولاية أمير المؤمنين وخلافته في ذلك الجمع؛ حتى يتواتر الخبر عنه ﷺ، وحتى لايطمع ذو مطمع في الخلافة عنه بعده، غير الذي أعلن حقه بأمر من الله في ذلك الجمع والعِتْرة من بعده عليهم السلام. وكأن الفرائض والمندوبات، وكل ما كان معمولاً به من امتثال الأوامر، واجتناب النواهي، والجهاد في سبيل الله، وكل ما اشتمل عليه القرآن كله، باستثناء الآية الأخيرة ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ...﴾ كان نصف الدِّين، ولذلك لم يكمل إلا بعد إعلان الرسول ﷺ ولاية أمير المؤمنين وخلافته، كما دلّ على ذلك ما كان في الغدير دلالة كاشفة)[١].

وهذه الآية لم تنزل في حجة الوداع، ولا علاقة لها بتخيلات الشيعة في النص على الإمامة، بل استدل بها المفسرون على أن الرسول ﷺ بلغ كل ما أنزل عليه

---

(١) [تاج الأولياء والأولياء] (الشيخ علي زين العابدين) دار مكتبة الهلال ـ ط. أولى ١٩٨٤م، ص: (١٢٦ ـ ١٢٩).

للناس جميعاً، ولم يشر لفرد أو طائفة بشيء من الدين، ومن ثم تبطل دعاوى الشيعة أن علياً وأئمتهم ـ الذين يزعمون ـ من بعده لديهم علم خاص ورثوه عن النبي ﷺ.

وقد ذكرَ البخاري عند تفسيره هذه الآية عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت: (...من حدَّثك أن محمداً كتم شيئاً مما أنزل الله عليه فقد كذب، وهو يقول: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... ﴾ الآية».

وروي عن ابن عباس أنه جاءه رجل، فقال له: إن ناساً يأتونا فخبرونا أن عندكم شيئاً لم يبده رسول الله ﷺ للناس، فقال ابن عباس: ألم تعلم أن الله تعالى قال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... ﴾؟ والله ما ورثنا من رسول الله ﷺ سوداء في بيضاء[1].

كما أن الآية تتضمن وعداً من الله لرسوله بالحفظ

---

(١) [تفسير ابن كثير] جـ٢، ص (٧٧)، وما بعدها، [فتح القدير] جـ٢، ص (٥٩).

والكلاءة حتى يبلغ رسالة ربه، فالآية لم تنزل في حجة الوداع في (غدير خم) كما يزعم الشيعة، وإنما نزلت بمنى في أحد المواسم، حين كان الكفر على أشده؛ فقد روي عن ابن عباس رضي الله عنه، عن النبي ﷺ أنه قال: «**لما بعثني الله برسالته ضقت بها ذرعاً، وعرفت أن من الناس من يكذبني، فأنزل الله**: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ... ﴾ الآية[1]».

وورد أيضاً عن ابن عباس: (أن رسول الله ﷺ سئِلَ: أي آية أنزلت من السماء أشد عليك؟ فقال: «**كنت بمنى أيام موسم الحج، فاجتمع مشركو العرب وأفناء الناس في الموسم، فأنزل عليّ جبريل**، فقال: ﴿ ۞ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغْ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ الآية، قال: «**فقمت عند العقبة، فناديت: يا أيها الناس، من ينصرني على أن أبلِّغ رسالة ربي وله الجنة؟ أيها الناس، قولوا: لا إله إلا**

(١) [أسباب النزول] (أبو الحسن علي بن أحمد الواحدي النيسابوري) ص(١١٥).

الله، وأنا رسول الله إليكم؛ تفلحوا، وتنجحوا، ولكم الجنة» قال: «فما بقي رجل ولا امرأة ولا صبي إلا يرمون بالتراب والحجارة، ويبزقون في وجهي، ويقولون: كذب صابئٌ، فعرض عليّ عارض، فقال: يا محمد، إن كنت رسول الله فقد آن لك أن تدعو عليهم كما دعا نوح على قومه بالهلاك، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: «اللهم اهد قومي فإنهم لايعلمون» فجاء العباس عمه فأنقذه منهم وطردهم عنه)(١).

وحديث (غدير خم) الذي أورده الشيعة والختمية، لم يرد بهذه الرواية الشيعية في أمهات الكتب، وأورد الترمذي جزءاً منه، وهو: «من كنت مولاه فعلي مولاه، اللهم والِ من والاه، وعادِ من عاداه» ووصف الإمام أحمد باقي الحديث بأنه زيادة كوفية، وقال عنها ابن تيمية: إنها مكذوبة(٢).

---

(١) [فتح القدير]، جـ٢، ص: ٦٤.
(٢) [مجموع الفتاوى] (ابن تيمية) جـ٤، ص (٤١٧، ٤١٨).

وما صح من هذا الحديث ليس فيه دلالة على تعيين علي للإمامة؛ لأن تفسير الشيعة للمولى بمعنى: (الأولى) لا تسنده مقاييس اللغة ولا اشتقاقاتها، (وواضح أن المراد بالولاية هنا: المحبة، أو دخول علي في ولاية المسلمين العامة المنبثقة من الإيمان، والتي تجب على كل مسلم، وهذا لا غبار عليه، ولا يستلزم أحقيته دون من عداه في خلافة الرسول ﷺ)[(١)].

بالإضافة إلى ذلك فقد استشهد الختمية بما استشهد به الشيعة من أحاديث ضعيفة أو موضوعة، فذهب أحدهم إلى القول بأنه من الأحاديث الثابتة التي تبين أنَّ ولاية أهل البيت هي نفس ولاية أمير المؤمنين (علي): قول الرسول ﷺ في الحديث الذي أورده الإمام أحمد في [المسند]، وأخرجه الطبراني: «**من أراد أن يحيا حياتي، ويموت مماتي، ويدخل جنة عدن غرسها**

---

(١) [مختصر التحفة الاثنا عشرية] (الدهلوي) ط. ثانية ١٣٧٨هـ، ص(١٥٩ ـ ١٦٢).

ربي، فليوالِ علياً من بعدي، وليوالِ وليه، وليقتدِ بأهل بيتي من بعدي، فإنهم عِتْرَتي، خلقوا من طينتي، ورزقوا فهمي وعلمي، فويل للمكذبين بفضلهم من أمتي، القاطعين فيهم صلتي، لا أنالهم الله شفاعتي»[١].

وهذا الحديث من الموضوعات التي وضعها الشيعة، وحاولوا الاستدلال بها على إمامة علي وأبنائه من بعده، وانساق وراءهم في الاستشهاد بها الختمية، من غير تحقيق ولا تبصر[٢].

كما استدلُّوا أيضاً بحديث آخر يورده الشيعة ويستدلون به، وهو (حديث السفينة)، رواية عن الحاكم عن أبي ذر: أن الرسول ﷺ قال: (أهل بيتي في أمتي كسفينة نوح؛ من ركبها نجا، ومن تخلّف عنها غرق)[٣].

---

(١) [الختمية]، ص (١١).

(٢) انظر: [المراجعات] (الموسوي) ص: (٥٨ ـ ٥٩).

(٣) [الختميـــة]: ص(١١)، [المراجعات] (الموسوي) ص: (٥٥ ـ ٥٧).

ويقول ابن تيمية: (إن هذا الحديث لا يعرف له إسناد صحيح، ولا هو في شيء من كتب الحديث التي يعتمد عليها، ومما يزيده وهناً: أن رواته من الشيعة الذين عرفوا برواية الموضوعات من غير تمييز)[١].

ومن الأحاديث التي أوردها الختمية، وهي من موضوعات الشيعة: (أنا مدينة العلم، وعلي بابها، فمن أراد العلم فليأتِ الباب)[٢].

فهذا خبر مطعون فيه رغم رواية الترمذي له؛ إذْ أنكره البخاري، وقال عنه يحيى بن معين: لا أصل له، وذكره ابن الجوزي في [الموضوعات]، وقال النووي والذهبي: إنه موضوع[٣].

ويقول الألباني: (وحديث مدينة العلم وعلي بابها

---

(١) [منهاج السنة النبوية] جـ٧، (ص٣٩٥).
(٢) [تاج الأولياء]، ص (١٥٠)، [المراجعات]، ص (٢٠١).
(٣) [مجموع الفتاوى] جـ٤، ص (٤١٠)، [الفوائد الموضوعة]، ص (٧١).

إلخ...) موضوع، رواه العقيلي في [الضعفاء]، وابن عدي في [الكامل]، والطبراني في [الكبير]، والحاكم عن ابن عباس، ورواه ابن عدي في [الكامل] عن جابر رضي الله عنه[١].

* * *

(١) [ضعيف الجامع الصغير وزيادته] (ناصر الدين الألباني) منشورات المكتب الإسلامي/ بيروت ط. ثانية ١٣٩٩هـ/ ١٩٧٩م، جـ٢، ص: ١٢، حديث رقم/ ١٤١٦.

الختمية ومقولات الشيعة حول الصحابة

وفي سبيل الدفاع عن هذا الفهم الشيعي لولاية أهل البيت، انساق الختمية مع الشيعة في اتهام الصحابة رضي الله عنهم بأنهم كتموا بعض الأحاديث التي تدل على ولاية علي رضي الله عنه، وتبرز فضله على من عداه، فيقول الشيخ علي زين العابدين: (ولو دوّن المحدثون كل ما ورد في حق أمير المؤمنين؛ لعبده الناس من دون الله، وكلهم قالوا: إنهم حذفوا أحاديث صحيحة تربو على الألوف من صحاحهم، ولا أظن أنهم حذفوا شيئاً غير خصائص أمير المؤمنين وعِتْرته الطاهرة؛ لأن إثباتها يبعدهم عن دواوين الملوك وعطاياهم، ويجعلهم محل غضبهم، ولكن أبى الله إلا أن يتم نوره، فانبرى لذلك قوم لم يبالوا بالملوك، ولا من سطوتهم ولم يخشوا إلا الله؛ فدوّنوا في صحاحهم ماوجدوا من مناقبهم

بصحيح الرواية والسند)[١].

ولا شك أن هذا ترديد لمزاعم الشيعة أن الصحابة تآمروا على إبعاد علي عن الخلافة، فحرفوا القرآن وكتموا السنة[٢].

بل إن ختمياً آخر يورد هذا الأمر صراحة، ويعيِّن بعض الجهات التي شاركت في المؤامرة ـ كما يزعم ـ، فيقول: (إن بعض الجهات حاولت طمس ولاية أهل البيت، والتهرب منها خلال قرون عديدة، وساعد على ذلك الملوك من بني أمية وبني العباس، الذين كان ذكر ولاية أهل البيت يزلزل عروشهم، فحاولوا إخفاء العديد من الأحاديث والآثار التي تدل على ولاية سيدنا علي بن أبي طالب، ولجأوا لتفسيرات غريبة لولاية أهل البيت)، ويضيف هذا الكاتب قائلاً: (ولو

---

(١) [تاج الأولياء]، ص (١٤١).

(٢) انظر: [دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين] (أحمد محمد أحمد جلي) ط. ثانية ١٤٠٨هـ/ ١٩٨٨م، مركز الملك فيصل للبحوث والدراسات الإسلامية، ص: (٢٣٥)، ومابعدها.

نقلت كل هذه الآثار والأخبار عن أمير المؤمنين؛ لعبدته الأمة المحمدية، فإذا ثبت أن جماعة من القرن الأول الفاضل قد عبدوا سيدنا عليّاً، فكيف يكون الحال إذا وصلت كل تلك الأخبار والآثار إلى القرون اللاحقة مع ضعف إيمانها وبعدها عن الحق؟!)[١].

وهكذا نرى أن التبعية العمياء لأدب الشيعة والهوى والغرض دفع بعض الختمية إلى الوقوع فيما وقع فيه الشيعة؛ من تجريح للصحابة، واتهام للمحدثين بأنهم أخفوا أو كتموا الأحاديث الدالة على ولاية علي وأهل البيت، وقد جهل هؤلاء قدر الصحابة، وأمانتهم، وإخلاصهم وتفانيهم في نقل الدِّين وحمله إلى الناس، ودفاعهم عنه بأنفسهم وأموالهم، كما جهل هؤلاء أيضاً أن كتب الحديث فيها الفصول الطويلة عن فضائل علي رضي الله عنه، كما فيها فضائل غيره من الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين، ولكن المحدِّثين سعوا إلى تجريد كتبهم وتخليصها من تلك

---

(١) [الختمية] ص: (١٣).

الأحاديث الباطلة التي وضعها الشيعة، وتناقلتها الزنادقة، حول عليّ وتقديسه، من القول بالنص على إمامته، وعصمته ورجعته، والزعم بأن لديه علماً لدنياً، أو ولايةً تكوينية، أو أنه قسيم رسول الله ﷺ في النبوة وشريكه في الرسالة، أو أنهما معاً انبثقا من النور الأزلي، أو النور المحمدي، وغير ذلك من العقائد الباطلة الفاسدة والمفاهيم المنكرة التي بنى عليها الزنادقة والملاحدة فيما بعد معتقداتهم في تأليه علي، والقول بحلول الله تعالى فيه، وإنكار الشرائع والتحلل من أحكامها.

والأئمة ـ كعلي وأولاده من بعده ـ الذين يدّعي الشيعة أنهم يتبعونهم ـ براء من هذه الدعاوى الباطلة، والأحاديث المنكرة.

ورغم أن الختميّة لم يسيروا مع الشيعة إلى النتيجة الحتمية لهذه الأقوال الباطلة، فلا يقولون مثلهم بعدم شرعية إمامة أبي بكر وعمر وعثمان، بل أثبتوا ولاية أولئك الخلفاء وشرعيتها؛ لأن ذلك اختيار الأمة المعصومة وإجماعها، ولكنهم جاؤوا برأي ملتوٍ، ذهبوا فيه إلى أن اختيار هؤلاء

العظماء من الصحابة ما كان ينبغي أن يتخذ كمبرر لإنكار ولاية أهل البيت، ومن ثم فإنه مع عدم وجود نص من الرسول ﷺ بزعامة أحد غيرهم تصبح ولايتهم واجبة لازمة، فإذا وجدت جماعة عيّنها رسول الله ﷺ بنص في القرون اللاحقة بخلاف أهل البيت، فيمكن أن نوليهم وبلا حرج، ولكن مع عدم وجود مثل هذا النص في أي جماعة لاحقة، بخلاف آل البيت، فإن ولايتهم تصبح أمراً لازماً، ويصبحون بناء على الأحاديث الواردة في حقهم أهل الزعامة والولاية(١).

وقد سبق أن أشرنا إلى أن ما ورد من أحاديث في حق أهل البيت، لاعلاقة لها بولايتهم العامة، ولا زعامتهم، بل إن تلك الأحاديث تنص على وجوب مودتهم، ورعاية حقهم، وعدم التعدِّي عليهم أو ظلمهم.

أما الولاية العامة فهي متاحة لهم كغيرهم من المسلمين، إذا ما توفرت فيهم الكفاءة والشروط المطلوبة للولاية،

---

(١) المرجع نفسه، ص: (١٤).

والأهلية لتولي أمر الناس، فلهم كغيرهم الحق في الولاية إذا ما قُدِّموا، أما إذا وجد من هو أكفأ منهم، أو قدمت الأمة من تراه أهلاً لتولي أمرها؛ فليس هناك من النصوص ما يفيد بتقديم أهل البيت على الأكفاء.

* * *

الختمية وتفسير الشيعة للتاريخ

وقد وقعَ الختمية أيضاً في شراك الشيعة، وتبعوهم في تفسير التاريخ الإسلامي وفقاً لأهوائهم، وتقييم أحداثه بأنها في جملتها محاولة لاضطهاد (أهل البيت)، ومحاربتهم، ومنعهم حقهم في الولاية والإمامة، ومجاهدة أهل البيت من جهة أخرى في استرداد هذا الحق والحفاظ عليه، فيذهبون ـ كما ذهب الشيعة ـ إلى أن أهل الشام الذين حاربوا علياً أهل دنيا، وأهل مكائد، وإدراكاً لولاية أهل البيت بايعت الأمة بعد علي ابنه الحسن، وأن الحسن تنازل لمعاوية بعد اتفاقهما على تولية الحسين، ومن ثم كان خروج الحسين على يزيد أمراً لازماً، وواجباً دينياً؛ لتحقيق ولاية أهل البيت، وكذلك فإن خروج الإمام زيد بن علي بن الحسين إنما كان لتحقيق ولاية أهل البيت[1].

---

(١) [الختمية] ص(١٥).

وهكذا فإن التاريخ الإسلامي كله ـ في زعم الختمية ومن قبلهم الشيعة ـ كان دعوة لولاية أهل البيت، وأن الدعوة لولاية أهل البيت في الأمة المحمدية استمرت، وقامت على أساسها دول، وضاعت دول أخرى، وكان آخرها في التاريخ: الجمهورية الإسلامية الإيرانية، وعلى رأسها إمام عظيم من أئمة آل البيت، وهو الإمام الخميني، أطال الله عمره[١].

ولا شك أن هذه الصورة للتاريخ الإسلامي لا حقيقة لها، ولا توجد إلا في كتب الشيعة التي فسرت أحداث التاريخ الإسلامي تفسيراً معيناً، حاول أن يربطها في جملتها بمذهبهم في الإمامة، ودور الأئمة في قيادة الأمة كحق ثابت لهم، واعتبروا كل من تولى الإمامة دونهم مغتصباً لها، وظالماً لهم.

وهذ صورة مجافية للحقيقة، فالتاريخ الإسلامي في جملته عبارة عن صفحات مضيئة من الجهاد المتواصل لنشر

---

(١) المرجع نفسه، ص: (١٧).

الإسلام، والعمل الجاد لتحرير الناس من نير الظلم والاضطهاد، وسعي دؤوب لنشر العلم والمعرفة، وإقامة المدن، وتشييد الحضارة والمدنية، وهذه حقائق وجهود سجلتها كتب التاريخ، واعترف بها حتى خصوم الإسلام ومن ناصبوا المسلمين العداء(١).

وقد أثنى بعض الختمية على جهود الشيعة المعاصرين وسعيهم في إقامة دولة شيعية رفعت لواء البعث الإسلامي، وأعلت من شعاراته ـ كما يزعمون ـ وحاولوا أن يحللوا أسباب هذا النجاح، ويبيِّنوا منابع قوة الشيعة، فيقول أحد الختمية: (لقد استطاع الشيعة تحقيق البعث الإسلامي، والجمهورية الإسلامية، بحمد الله وحسن توفيقه، فوصلوا إلى حكومة إسلامية، لا شرقية ولا غربية، تستند على أسس

(١) لشهادات بعض الغربيين في هذا المجال، انظر: [الحضارة الإسلامية والعربية] (جوستاف لوبون)، [الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري] (آدم متز)، [الدعوة إلى الإسلام] (سير توماس آرنولد).

دينية أصيلة، الحاكمية فيها لله وحده لا لغيره من الأنداد)[١].

وحقيقة الأمر: أنه بالرغم من استبشار المسلمين بقيام الثورة الإيرانية، وإعلان قادتها تأسيس الجمهورية الإسلامية، وعقد كثير من المسلمين آمالاً عريضة عليها، فإن الحركة لم تلبث أن انغلقت على نفسها، وكشفت عن أهدافها المذهبية الضيقة، وانشغلت بدلاً من توطيد قواعد الدولة الإسلامية، ونشر الإسلام، والدعوة إليه، انشغلت بإثارة الصراعات المذهبية، والدعوات الطائفية، والحرب الأهلية بينها وبين جيرانها من المسلمين، فدعوى: أن الثورة استندت إلى أسس دينية أصيلة ـ تحتاج إلى إثبات، ومن يستقرئ الأحداث في إيران بعد الثورة يدرك هذا الأمر.

ويزعم هذا الكاتب أن سبب نجاح الشيعة في دعوتهم يعود إلى عدّة أسباب، من بينها:

عدم تعرُّض تلك الدعوة لانتكاسات داخلية، وظهور فرق معوقة، بينما الذي أعاق أهل السنة ظهور بعض

---

(١) [الختمية]، ص: (١٢٦).

الجماعات؛ كالإخوان المسلمين، والوهابيين، كذلك استطاع الشيعة من خلال علمائهم تقديم مناهج علمية عصرية مستمدة من روح الإسلام، ولا تعارض الأصول الإسلامية.

ويضرب الكاتب مثلاً لمفكري الشيعة بالإمام محمد باقر الصدر، وغيره من الذين قدموا ـ كما يقول ـ للعالم الإسلامي درراً عجيبة في فلسفة الإسلام الاقتصادية والاجتماعية، ونظامه السياسي، ودستوره السماوي، مما أثرى الفكر الإنساني ككل.

كذلك فإن من منابع قوة الشيعة: ظهور إمام عظيم من أئمة آل البيت فيهم، هو الإمام الخميني، الذي وحّد آراءهم، وقدَّم لهم حلولاً عصرية لكل مشكلة من المشاكل، وبثّ فيهم روحاً عظيمة للجهاد، ونشر العلم، والتضحية للمسلمين ومساعدتهم، بينما الذي أخر ظهور الجمهورية الإسلامية عند أهل السنة هو ابتعاد الصوفية عن السياسة في العصور المتأخرة، واتسام بعض زعمائهم بجهل شديد بعلوم الدِّين، في الوقت الذي نرى أن زعامة الشيعة في يد علماء أئمة، تكاد استنباطاتهم في علوم الدِّين ترفعهم إلى

مصاف الأئمة المجتهدين[١].

وبصرف النظر عن زعم هذا الكاتب وقوله بنجاحات الشيعة، فإن دعواه أن ظهور الإخوان المسلمين والوهابيين كانا من معوقات البعث الإسلامي، قول مجافٍ للحقيقة؛ بل إن التاريخ يؤكد أن البعث الإسلامي المعاصر تمتد جذوره البعيدة إلى الحركة التي قام بها الشيخ محمد بن عبدالوهاب (وليست الوهابية كما عبّر الكاتب)، ويرتبط هذا البعث الإسلامي مباشرة بدعوة الإخوان المسلمين.

أما حركة الشيخ محمد بن عبدالوهاب، فلا أحد ينكر الدور الإصلاحي الذي قامت به، ويكفي أنها قامت بنشر عقيدة التوحيد الصافية في عصر سادت فيه البدع والضلالة، وأصناف الشرك والانحرافات، وألوان الخرافة والدجل، كما سعت إلى إقامة مجتمع إسلامي تسوده عقيدة التوحيد، وقيم الإخاء الإسلامي، وكان لها الأثر الكبير في كثير من حركات الإصلاح الإسلامية في مختلف أنحاء العالم

---

(١) المرجع نفسه، ص: (١٢٦، ١٢٧).

الإسلامي[١].

أما الإخوان المسلمون، فلا ينكر أحد أثرهم العظيم في حركة البعث الإسلامي المعاصر، فهم الذين قدموا في هذا العصر الفهم الشمولي للإسلام، وبعد أن أدّى تخلف المسلمين في العصورة المتأخرة إلى قصر الإسلام على شعائر العبادات من صلاة وصوم وزكاة وحج وذكر وتسبيح، أكده الإخوان ورفعوا شعار: أن الإسلام دين ودولة، عقيدة وشريعة، عبادة وقيادة، صلاة وجهاد، وطن وجنسية، خلق وقانون، وشجاعة وقوة، فأثبتوا أن الإسلام نظام شامل يفرض نفسه على كل مظاهر الحياة، ينظم أمور الدنيا كما ينظم أمور الآخرة، وحاولوا تحقيق هذه الشعارات في واقع الحياة، فرفعوا لواء الجهاد ضد الإنجليز في مصر، وقاتلوا ضد اليهود في فلسطين، وأسهموا في مجال الخدمات

---

(١) انظر: [بحوث أسبوع الشيخ محمد بن عبدالوهاب]، (جزءين)، مطبوعات جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية/ الرياض: ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م.

الاجتماعية فأنشؤوا المدارس والمستشفيات، وفي ميدان الاقتصاد والمال كونوا الشركات والمصارف وفقاً لقواعد الشريعة الإسلامية، وحاولوا تمثل قيم الجيل الإسلامي الأول، عن طريق التربية والسلوك، أبعد هذا يُقال: بأن هذه الجماعة أعاقت البعث الإسلامي؟![1]

أما زعم الكاتب بأن مفكري الشيعة ـ كمحمد باقر الصدر ـ قدموا مناهج علمية عصرية مستمدة من روح الإسلام، وأن هذا هو أحد عوامل نهضتهم المعاصرة، في حين تخلف الآخرون في هذا المجال، فهذا زعم باطل،

---

(١) انظر: [مذكرات الدعوة والداعية] (حسن البنا)، [الإخوان المسلمون والمجتمع المصري] (محمد شوقي زكي) القاهرة: ١٩٥٤م. [الإخوان المسلمون كبرى الحركات الإسلامية في العالم العربي] (إسحاق موسى الحسين) بيروت/ ١٩٥٥م، [الإخوان المسلمون في حرب فلسطين] (كامل الشريف) مكتبة وهبة، [الإخوان المسلمون، أحداث صنعت التاريخ] (محمود عبدالحليم) ٣ أجزاء، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع ١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م.

ويدل إما على جهل الكاتب، أو تجاهله لجهود علماء المسلمين المعاصرين، وإسهاماتهم في مختلف مجالات المعرفة، كالاقتصاد والسياسة والاجتماع والتربية، ويكفي أن نشير هنا إلى بعض الأعلام؛ كالمودودي، والندوي، وسيد قطب، ومحمد قطب، ومحمد أبو زهرة، وعبدالقادر عودة، ومصطفى السباعي، وسعيد حوى، ومالك بن نبي، وغيرهم وغيرهم ممن قامت الحركة العلمية المعاصرة على جهودهم العلمية، وأثروا شتى جوانب المعرفة الإسلامية.

وهذا لا يعني أننا نغمط محمد باقر الصدر حقه، أو نقلل من جهوده العلمية في مجال الاقتصاد والسياسة والاجتماع، ودوره في التصدِّي للعلمانية وموجة الإلحاد، فلا شك أن له جهوداً مقدَّرة في هذه الميادين، مع الإشارة أيضاً إلى عصبيته الشيعية التي عبّر عنها في كتابه: [التشيع ظاهرة طبيعية في إطار الدعوة الإسلامية] (مطابع الدجوي ـ عابدين، القاهرة) والذي عبّر فيه صراحة عن أن دين الشيعة هو الدين الحق ولا حق غيره، وهو الدين الأصلي الذي يطلب إلى كل أحد أن يصحح دينه بموجبه.

أما دور الخميني وأثره في الحركة الشيعية المعاصرة، فلا يشك أنه كان منبعاً من منابع قوة الشيعة، كما يقول الكاتب، إذْ استطاع أن يوحِّد جهود الشيعة، ويجمع كلمتهم، كما أنه استطاع أن يبث فيهم روح الجهاد وحميته.

ولكن مما لاشك فيه أيضاً أن الخميني فشل فشلاً ذريعاً في أن يخرج الشيعة من إطار العصبية المذهبية الضيقة، الأمر الذي أدّى إلى تعثر ثورته، وضياع أهدافها وسقوط شعاراتها.

أما القول بأن سبب تأخر المسلمين هو جهل قادتهم، وابتعادهم عن السياسة، فهذا قول قد ينطبق على بعض الجماعات التي يقوم على رأسها زعماء فهموا الدين فهماً قاصراً، فأضروا بأتباعهم، وخاضوا في السياسة من غير اهتداء بقيم الإسلام وتعاليمه من ناحية، مع جهل تام بواقع العصر من ناحية أخرى، فأفسدوا الدِّين والسياسة معاً.

الختمية امتداد لتاريخ الشيعة

يعتبر الختمية أنفسهم امتداداً لهذا التاريخ الشيعي، المتمثل في ولاية أهل البيت، والمرتبط بحركة البعث الشيعية المعاصرة، بل يدّعون أن تاريخ السودان كله ما هو إلا استجابة لولاية أهل البيت، وتحقيق لها، فيقول أحد الختمية: (إن الأئمة من آل البيت هم الزعماء والقادة، وأهل الكلمة والتوجيه في كل الممالك السودانية، ويضرب مثلاً لذلك بملوك العبدلاب[1]، الذين هم أشراف من آل البيت،

---

(١) العبدلاب: نسبة إلى عبدالله جماع، الذي استطاع أن يؤسس دولة إسلامية في أواسط السودان في الفترة: (٩١٠هـ/ ١٥٠٤م ـ ١٢٣٦هـ١٨٢١م). انظر في تاريخ هذه الدولة [مشيخة العبدلاب] (محمد صالح محيي الدين) نشر الدار السودانية، ط. أولى ١٣٩٢هـ/ ١٩٧٢م، وقد ناقش المؤلف نسب العبدلاب، وانتهى إلى أن الراجح: أنهم عرب جهنيون، وضعف دعواهم الانتساب إلى البيت =

ثم دولة المهدية والتي قامت على يد إمام من آل البيت، وهو محمد أحمد المهدي)[١].

وإذا كان المهدي من آل البيت وزعامته زعامة مشروعة، فلماذا إذن حاربه أسلاف المراغنة؟! وأعانوا على تقويض دولته؟ أما زعامة آل الميرغني فإنها ـ عند الختمية ـ متميزة عن كل هذه الزعامات، (إن زعامة آل الميرغني من أميز وأعظم الزعامات في معظم بقاع السودان من قبل الفتح التركي وإلى يومنا هذا، وكان لهذه الأسرة الطاهرة من آل البيت النصيب الأوفى في تشكيل وصياغة تاريخ السودان الحديث)[٢].

وقد رأينا من قبل شذرات من تاريخ أسرة الميرغني في السودان، وباسترجاع بعض أحداث تاريخ السودان الحديث والمعاصر؛ يتبين مدى بُعد هذا الكاتب عن الحقيقة في

= العلوي. انظر: صفحات (١٠٨ ـ ١١٣).

(١) [الختمية] (ص١٧).

(٢) المرجع نفسه، ص: (٢٣).

تصويره لدور أسرة الميرغني في صياغة تاريخ السودان الحديث[١].

وقد حاول الختمية المعاصرون أن يضفوا على زعمائهم ما أضفاه الشيعة على أئمتهم، من إيجاب الطاعة الكاملة لهم، والموالاة المطلقة، وربطوا ذلك بحركتهم السياسية والأحزاب التي أنشؤوها، كما سبق أن رأينا، فدور الإمام أو الزعيم يتمثل في الرعاية وتوجيه الأتباع والمريدين في الأمور الجسيمة، ودوره شبيه بدور علماء الشيعة أو المرجعية الشيعية، وهم ـ أي الزعماء ـ في هذا الأمر أشبه ما يكون بأمر المرجعية في إيران، حيث يفتي الإمام الأكبر في الأمور الجسيمة، ويوجه وينصح، ولكن تحكم البلاد برئيس جمهورية ورئيس وزراء وبرلمان منتخب[٢].

بل إن الرعاية كما يقول أحد الختمية تلزم بالنسبة للختمية من جهتين:

---

(١) انظر: الدراسة تحت الطبع للمؤلف ص(٢٠)، هامش(١).
(٢) [الختمية] ص(٢٤).

من جهة: أن الختمية طريقة صوفية، والتصوف يقوم على الالتزام ببيعة معينة توجب طاعة تامة للشيخ المرشد، ومن ثم فإن طاعة أهل الطريقة الختمية لشيخهم أمر لا بد منه، وإن لم يلتزموا بذلك خرجوا عن الطريقة إلى غير رجعة.

والجهة الثانية: المتمثلة في وجوب ولاية أهل البيت عليهم كبقية المسلمين، على اعتبار أن السادة المراغنة من أهل البيت فتجب طاعتهم تبعاً لهذا.

وقد حاول زعماء الختمية استغلال هذه المفاهيم في المجال السياسي، فألزموا أتباعهم بنهج سياسي معين، والالتزام بإشارتهم في المواقف السياسية، وربطوا ذلك كله بعقد البيعة، فمن لم يتبع زعماء الطائفة في مواقفهم السياسية سقطت بيعته، بل يخشى عليه سوء الخاتمة: (تجب الإشارة في هذا المجال إلى أن أي ختمي انضم إلى أي حزب آخر غير (الاتحادي الديمقراطي) أو صوت له في الانتخابات، أو عارض قيادات الحزب الاتحادي الديمقراطي؛ فإن بيعته ساقطة، ويُخشى عليه سوء الخاتمة؛ لقول الرسول ﷺ فيما

رواه الحاكم: «أهل بيتي أمان لأمتي من الاختلاف، فإذا خالفتهم قبيلة من العرب اختلفوا فصاروا حزب إبليس»[١].

ومن ناحية أخرى: فإن زعيم الختمية كالإمام عند الشيعة، لا يقدم على رأيه، ورأيه ملزم لمن عداه من القادة والسياسيين، ومن ثم اعتبر الختمية من ملامح الجمهورية الإسلامية وجود إمام من أئمة أهل البيت تكون له الكلمة القاطعة والرأي النهائي في كل أمر من الأمور: يجب أن يوجد من أئمة البيت من يكون رأيه ملزماً للسياسيين في كل أمر من الأمور؛ لأنهم لا يضلون بنص القرآن والسنة، وسندنا في ذلك ولاية أهل البيت التي أعلنها الرسول، وأخذ بها الخلفاء الراشدون، وقد ثبت أن سيدنا عمر كان يأخذ برأي الإمام علي في كل أمر من الأمور، وهو القائل عن الإمام علي: (هو مولاي ومولى كل مؤمن ومؤمنة)[٢].

ولعلَّ هذا يفسر لنا لماذا لم يهتم زعماء الختمية بعقد

---

(١) [الختمية]، ص: (٢٥).

(٢) المرجع نفسه، ص: (١٥٢).

مؤتمر عام لحزبهم الاتحادي الديمقراطي طيلة الثلاثة أعوام من الديمقراطية الثالثة في السودان؟ إذْ أن الرأي في واقع الأمر هو رأي الزعيم الملهم الذي لايخطئ ولا يضل ! !

* * *

الختمية وحركة البعث الشيعية المعاصرة

حاول الختمية أن يؤكِّدوا أن جذور الشيعة والصوفية واحدة، فزعموا أن كل الطرق الصوفية خرجت من مشكاة آل البيت، وانتقلت من بلاد الشيعة إلى بقية أنحاء العالم الإسلامي، كما أن كبار الصوفية ـ في رأي الختمية ـ مرتبطون بالشيعة وأئمتهم، فعبدالقادر الجيلاني (ت: ٥٦١هـ) الذي تعود إليه كل الطرق الصوفية: هو شريف من آل البيت، سنده في الطريقة إلى الأئمة الاثني عشر الذين هم أئمة الشيعة في كل شيء، والكرخي تلميذ الرضا، وأبو يزيد البسطامي تلميذ جعفر الصادق.

ويحاول كاتب ختمي معاصر أن يزيّن صورة الشيعة لدى الختمية، ويبرئهم من الأصول التي يقرون بها، ويذهب إلى أن أعداءهم من بني أمية وبني العباس هم الذين شوهوا صورتهم.

وبدأ الناس يصدقون هذه الأكاذيب حولهم، ومن هنا

بدأت الجفوة المفتعلة.

ويردد الكاتب مزاعم الشيعة حول طائفتهم، ويذهب إلى أن الشيعة هم الذين نقلوا لنا السنة وروايات القرآن، وهم أعلم الناس بالعربية والأصول وبقية العلوم الشرعية، ويذهب إلى أن الخلاف مع الشيعة مجرد خلاف في وجهات النظر السياسية منذ فجر الإسلام، ولم يتصل قط بأساس العقيدة كما يظنه بعض الجهال(١).

أما دعوى الكاتب بأن الشيعة نقلوا السنة وروايات القرآن إلخ.. فهذا ترديد لمزاعم الشيعة الذين ادّعوا بأنهم أصل العلوم الإسلامية وواضعو أسسها، وهذه لا شك دعوى باطلة لا أساس لها، وإذا كان علماء الشيعة هم أساس الحركة العلمية، فما هو دور الأئمة الأربعة في مجال الفقه والأصول، وأصحاب الصحاح الستة في مجال الحديث، والطبري في التفسير والتاريخ، والواقدي وابن هشام في السيرة، والخليل والأصمعي في

(١) المرجع نفسه، ص: (١٤٨).

الأدب؟!![١]

أما القول بـ: أن الخلاف مع الشيعة مجرد خلاف في وجهات النظر السياسية، فهذا صحيح، وينطبق على التشيع في بداياته الأولى، إذْ كان الخلاف حول الإمامة، ولكن لم يلبث هذا الخلاف أن تشعب وقاد في النهاية إلى تبني الشيعة آراء متعلقة بالقرآن وسلامة نصه من التحريف، والسنة ومدلولاتها وحجيتها، والصحابة رضوان الله عليهم وأمانتهم في نقل هذا الدِّين، وتبنوا في كل هذه المسائل عقائد وآراء منحرفة عن الشرع، ومخالفة لمعتقدات أهل السنة والجماعة[٢].

---

(١) انظر: [ضحى الإسلام] (أحمد أمين) جـ٢، ط. ثانية، مكتبة النهضة المصرية. [موسوعة الحضارة الإسلامية] (أحمد شلبي) مجلد٣، ط. خامسة ١٩٧٤م. مكتبة النهضة المصرية، ص (٢٣٣) وما بعدها، [دراسات في تطور الحركة الفكرية في صدر الإسلام (صالح أحمد العلي) ط. أولى ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م. مؤسسة الرسالة.

(٢) انظر: [دراسة عن الفرق في تاريخ المسلمين] (أحمد =

ويؤكد الكاتب الارتباط الوثيق بين الشيعة والصوفية، وتطابق المبادئ والأصول: (الحقيقة التي لابد من إدراكها: أن الصوفية من المنتسبين لأهل السنة هم الوجه الآخر للشيعة، فكلاهما مؤمن بولاية أهل البيت، مقر ببيعته لإمام قائم يسعى لتطبيق الشريعة، بالإضافة إلى تطابقهما في مسألة السلوك على الشيخ المرشد).

وإذا كانت الأصول والمبادئ متوافقة، والغايات واحدة، فينبغي تضافر الجهود بين الفئتين من أجل البعث الإسلامي: (إن مظاهر الوعي الإسلامي تؤكد قيمة التقاء الصوفية من أهل السنة والشيعة؛ للتقارب العظيم في كل شيء، ووحدة المصير والمبدأ والهدف).

ويدَّعي هذا الكاتب أن البعث الإسلامي لن يكون إلا على يد المؤمنين بولاية أهل البيت (الشيعة والصوفية): (إن البعث الإسلامي لن يأتي إلا عن طريق المؤمنين بولاية أهل البيت؛ وذلك لأن الرسول ﷺ حين ذكرَ مهدي آخر الزمان

= جلي) ط. ثانية ص: (١٥١ ـ ٢٤٤).

ذكر أنه من آل البيت، وهكذا فإن البعث القادم لن يكون إلا على أيدينا، وفي قول الرسول ﷺ الذي ذكرنا إشارة واضحة إلى أننا أصحاب البعث الإسلامي في الأمة المحمدية)[١].

من هذا العرض يتبين لنا مدى الصلة بين إحدى الطرق الصوفية ـ وهي طائفة الختمية ـ وبين الفكر الشيعي والحركة الشيعية المعاصرة.

وأن طائفة الختمية تبنت فكرة الشيعة حول آل البيت، وارتباط هذا التصور بقضية الإمامة، وأن الختمية استندوا للأدب الشيعي وحجج الشيعة وبراهينهم لإثبات أحقية أهل البيت بالولاية والإمامة؛ سعياً منهم لإثبات هذا الحق لمشايخهم.

وأن بعض الختمية وقعوا فيما وقع فيه الشيعة من تجريح للصحابة واتهامهم بأنهم كتموا بعض الأحاديث الدالة على ولاية علي، وكذلك فسّروا تاريخ الإسلام بمثل ما فسره به الشيعة، وربطوا تاريخ طائفتهم بتاريخ الحركة

(١) [الختمية]، ص (١٢٧).

الشيعية عن طريق الربط بين أصول التصوف والتشيع من ناحية، وعن طريق ربط حركة البعث الإسلامي، وقصرها على الطائفتين المؤمنتين بولاية أهل البيت كما يزعمون من ناحية أخرى.

وهذا كله يؤكد تسرب الفكر الشيعي إلى بعض الجماعات الصوفية، وتأثر تلك الجماعات بفكر الشيعة وحركاتهم المعاصرة.

* * *

الفهرس